الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

ثَوْرَة البَهْنَسا

بقلم: عبد التواب يوسف
ريشة: عبد الرحمن بكر

دار زهور المعرفة والبركة

رقم الإيداع
الترقيم والفهرسة المكتبية

الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

تأليف:
أ/ عبد التواب يوسف

رسوم واخراج فني:
عبد الرحمن بكر
اسكتشات معارك:
د/ ياسر نصر
تلوين: محمد حسن

دار زهور المعرفة والبركة

شَرُفَتْ مِصرُ بِزِيَارَةِ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرَيْمَ، طِفْلاً فِي حُضْنِ أُمِّهِ، وَبِرِفْقَةِ يُوسُفَ النَّجَّارِ، وَبَقُوا فِيهَا فَتْرَةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ، وَهُنَاكَ بُقْعَتَانِ أَقَامُوا فِيهَا بَعْضَ الْوَقْتِ يَتَبَرَّكُ بِهِمَا أَقْبَاطُ مِصْرَ: حَيُّ الزَّيْتُونِ، وَهُوَ مِنْ أَحْيَاءِ الْقَاهِرَةِ الآنَ، وَالْمَكَانُ الثَّانِي فِي أَسْيُوط بِصَعِيدِ مِصْرَ، حَيْثُ بُنِيَتْ أَدْيِرَةٌ فِي مَوَاقِعِ الزِّيَارَةِ..

وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ وُلِدَ فِي مِصْرَ، وَهُوَ مِنْ أَنْبِيَاءِ الْيَهُودِ، وَغَادَرَهَا إِلَى فِلَسْطِينَ ثُمَّ عَادَ لِيَدْعُوَ فِرْعَوْنَ مِصْرَ وَأَهْلَهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَلَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلا أَنْ خَرَجَ مَعَ أَهْلِهِ وَنَاسِهِ وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ سَجَّلُوا تَارِيخَ دُخُولِ الْمَسِيحِيِّينَ إِلَى مِصْرَ، لَكِنَّ كَثِيرِينَ اهْتَمُّوا بِالصِّرَاعِ الَّذِي نَشَبَ بَيْنَ الرُّومَانِ الْكَاثُولِيكَ وَبَيْنَ الأَقْبَاطِ الأَرْثُوذُكْسِ، وَالَّذِي انْتَهَى بِطَرْدِ الرُّومَانِ الْبِيزَانْطِيِّينَ عَلَى يَدِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَقُوا تَرْحِيبًا مِنْ جَانِبِ الْمِصْرِيِّينَ فِي الْبِدَايَةِ، إِلَى أَنْ دَبَّ الْخِلافُ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ، وَوَصَلَ الصِّرَاعُ ذُرْوَتَهُ فِي مَعَارِكَ طَاحِنَةٍ، أَبْرَزُهَا مَا حَدَثَ فِي (الْبهنسا) بِمُحَافَظَةِ الْمِنْيَا.

عَرَضَ أ.د. حُسَيْنٌ نَصَّار لِلثَّوَرَاتِ الْقِبْطِيَّةِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ وكَانَ مَرْجِعُهُ فِي هَذَا مَا قَالَ بِهِ سَاوِيرَس بْنُ الْمُقَفَّعِ أَحَدُ أَسَاقِفَةِ الْكَنِيسَةِ الْقِبْطِيَّةِ، وَفِي عَهْدِ هِرَقلَ إمْبرَاطُور بِيزَنْطَةَ (الْجَانِبَ الشَّرْقِيَّ لِلإمْبرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ) فَرَضَ المَذْهَبَ الْكَاثُولِيكِيَّ عَلَى المِصْرِيين ؛ مِمَّا اضْطَرَّ بِنْيَامِينَ الأَرْثُوذُوكْسَيَ - بِطْرِيَرْكَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ - إِلَى الْهُرُوبِ إِلَى الصَّحْرَاءِ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ، نَجَاةً بِحَيَاتِهِ.. بِيْنَمَا لَقِيَ أَخُوهُ مِينَا مِنْ صُنُوفِ الْعَذَابِ مَا لاَ يَتَصَوَّرُهُ أَوْ يُطِيقُهُ بَشَرٌ،



فَقَدْ أَحْرَقُوا جَسَدَهُ إِلَى حَدٍّ أَنْ سَالَ شَحْمُ كِلْيَتَيْهِ وَلَكَمُوهُ حَتَّى سَالَتْ أَضْرَاسُهُ، ثُمَّ أَغْرَقُوهُ فِي الْمَاءِ.. وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ مَذْهَبِهِ، كَمَا فَعَلَ بَعْضُ ضِعَافِ النُّفُوسِ مِمَّنْ أَغْرَقُوا عَلَيْهِمُ الْمَنَاصِبَ وَالْمِنَحَ وَالْهَدَايَا، وَأَقَامَ الرُّومَانُ أُسْقُفًا عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي كُلِّ بَلَدِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ، مِمَّا أَثَارَ السَّخَطَ فِي كُلِّ مَكَانٍ..

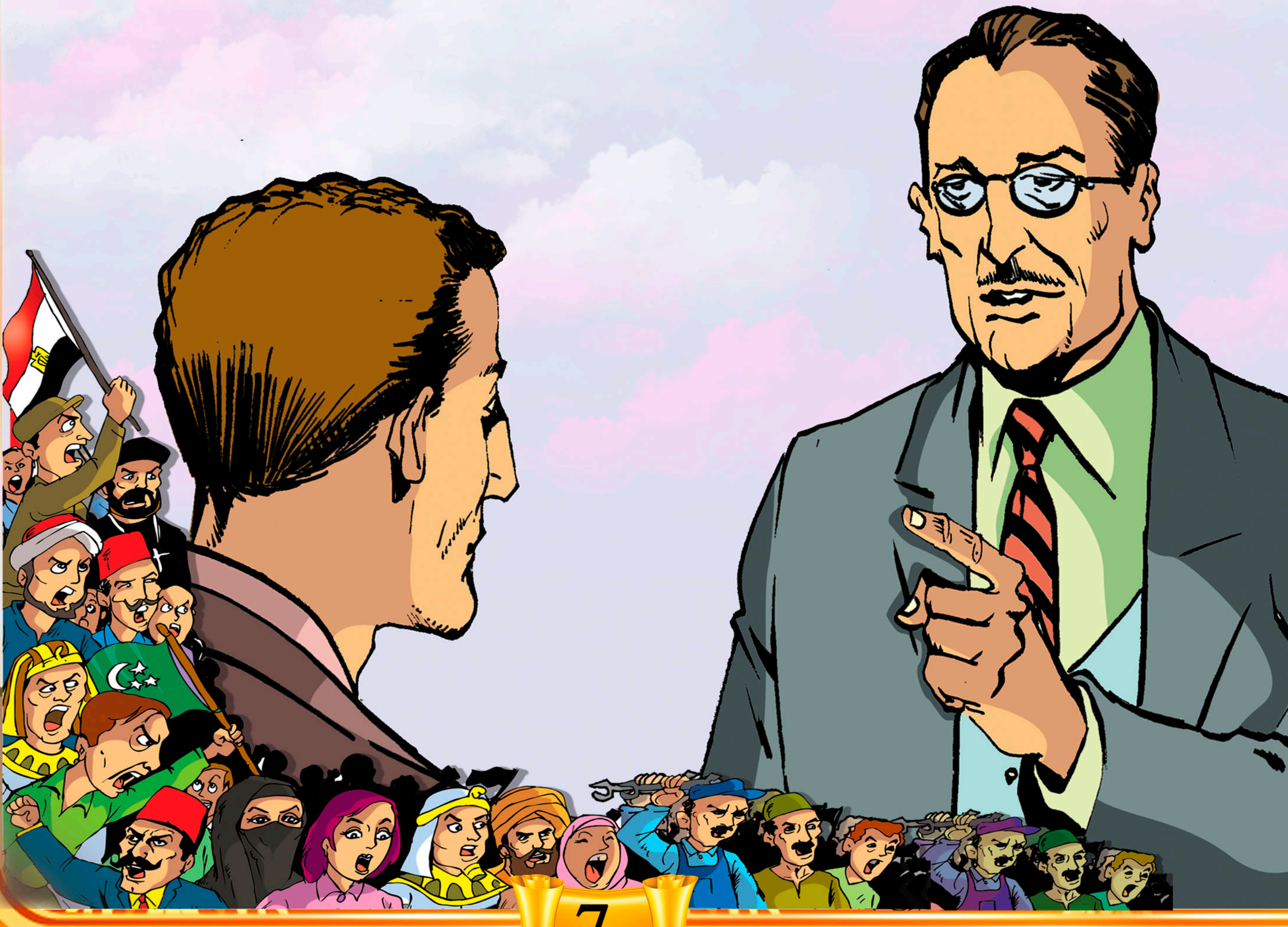
وَيَنْقُلُ لَنَا د. نَصَّارٌ عَنْ هَذَا التَّارِيخِ الرَّسْمِيِّ لِلْكَنِيسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي مِصْرَ:

– فِي تِلْكَ الأَيَّامِ نَظَرَ هِرَقْلُ مَنَامًا، أَنَّ أُمَّةً تَغْلِبُهُ وَ تَمْتَلِكُ أَرْضَهُ .. .. ظَنَّ أَنَّهُمُ الْيَهُودُ، فَأَمَرَ بِتَدْمِيرِهِمْ .. وَبَعْدَ أَيَّامٍ يَسِيرَةٍ ظَهَرَ وَاحِدٌ اسْمُهُ "مُحَمَّدٌ" فَرَدَّ الْعَرَبَ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، إِلَى مَعْرِفَةِ الله : أَنَّهُ وَاحِدٌ ، وَأَنْ يَشْهَدُوا أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ، وَمَلَكَ مُحَمَّدٌ وَصَحْبُهُ دِمَشْقَ وَالشَّامَ وَعَبَرَ الأُرْدُنَّ وَبَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَكَانَ الرَّبُّ يَخْذُلُ جِنْسَ الرُّومِ قدامه لأَجْلِ أَمَانَتِهِمْ الْفَاسِدَةِ .. وَأَوْفَدَ الْمُسْلِمُونَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ إِلَى مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، فَهَدَمَ الْحُصُونَ وَأَغْرَقَ الْمَرَاكِبَ وَأَذَلَّ الرُّومَانَ.

كَانَتْ مِصْرُ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ، لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ، وَالصِّرَاعُ يَدُورُ بَيْنَ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِ بِشَرْقِهَا وَغَرْبِهَا، وَشَمْسُ حَضَارَتِهَا تَأْفُلُ، وَبَيْنَ حَضَارَةٍ قَادِمَةٍ وَافِدَةٍ مُؤْمِنَةٍ بِاللَّهِ، وَبِأَنَّهُ لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلا بِالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ مِنْ وَاجِبِهِمْ أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْ يَنْشُرُوا الإِسْلامَ فِي كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ..

وَالَّذِينَ رَوَوْا لَنَا تَارِيخَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ صَعُبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى الْحِيَادِ، هُمْ إِمَّا مُنْحَازُونَ لِمِصْرَ وَالْمِصْرِيِّينَ، وَإِمَّا هُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِينَ مَعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – وَأَغْلَبُهُمْ مِنَ الْيَمَنِيِّينَ – وَلَدَيْنَا الرَّغْبَةُ فِي أَنْ نَحْكِيَ الأَحْدَاثَ كَمَا وَقَعَتْ بَعْدَ أَنِ انْتَهَى أَمْرُ الرُّومَانِ وَخَرَجُوا بِلا عَوْدَةٍ وَقَدِ ارْتَاحَ بَنُو مِصْرَ لِذَلِكَ، فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الاضْطِهَادِ الدِّينِيِّ وَالظُّلْمِ الْمَالِيِّ الَّذِي يَرْزَحُونَ تَحْتَهُ، وَكَانَتْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ ضَرَائِبُ تُثْقِلُ كَاهِلَهُمْ وَلا يَتَبَقَّى لَهُمْ مِنْ ثَمَرَةِ عَمَلِهِمْ إِلا أَقَلَّ الْقَلِيلِ،

وَبَقِيَ الْوَافِدُونَ الْجُدُدُ جُنْدًا، لا يَمْتَهِنُونَ الزِّرَاعَةَ، تَرَفُّعًا، أوْ لأنَّهُمْ بِلا خِبْرَةٍ بِهَا، وَرَاحُوا يُوَاصِلُونَ زَحْفَهَمْ إلَى لِيبْيَا، وَغَرْبِهَا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الأمْنِ .. بَيْنَمَا اسْتَمَرَّ الْفَلاحُونَ الْمِصْرِيُّونَ فِي عَمَلِهِمْ وَقَدِ ارْتَاحُوا لِلْعَرَبِ الَّذِينَ أعَادُوا الأبَ بِنْيَامِينَ إلَى مَوْقِعِهِ وَسَادَ لَوْنٌ مِنَ التَّسَامُحِ الدِّينِيِّ، وَإنْ بَقِيَتْ مُشْكِلَةُ الْجِزْيَةِ الَّتِي يُحَصِّلُونَهَا مِنَ الأقْبَاطِ وَالْخَرَاجِ الَّذِي يَأخُذُونَهُ مِنَ الْجَمِيعِ، وَبِالذَّاتِ مِنَ الْفَلاحِينَ



وَهُنَا الْكَثِيرُ مِنَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي بَقِيَتْ لَنَا مِنْ أَحْدَاثِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي سَادَهَا بَعْضُ السَّلَامِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَخْلُو مِنَ احْتِكَاكَاتٍ، مِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ شِجَارٍ وَقَعَ فِي الْفُسْطَاطِ مَا بَيْنَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَفَتًى مِصْرِيٍّ فِي مِثْلِ سِنِّهِ اعْتَدَى عَلَيْهِ ابْنُ قَائِدِ الْحَمْلَةِ، فَمَا كَانَ مِنْ أُمِّ هَذَا الصَّبِيِّ الْمِصْرِيِّ إِلا أَنْ صَحِبَتْهُ إِلَى الْمَدِينَةِ

– الْعَاصِمَةِ يَوْمَئِذٍ – لِتَشْكُوَ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مَا حَدَثَ لابْنِهَا، وَيَسْتَدْعِي الْخَلِيفَةُ ابْنَ عَمْرٍو وَابْنَهَا، وَيَسْمَعُ الْقِصَّةَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَإِذَا بِهِ يَحْكُمُ بِأَنْ يَقْتَصَّ الْمِصْرِيُّ مِنْ غَرِيمِهِ، وَيَحْفَظُ لَنَا التَّارِيخُ عِبَارَةَ الْخَلِيفَةِ الْعَادِلِ:

– اضْرِبِ ابْنَ الأَكْرَمِين!

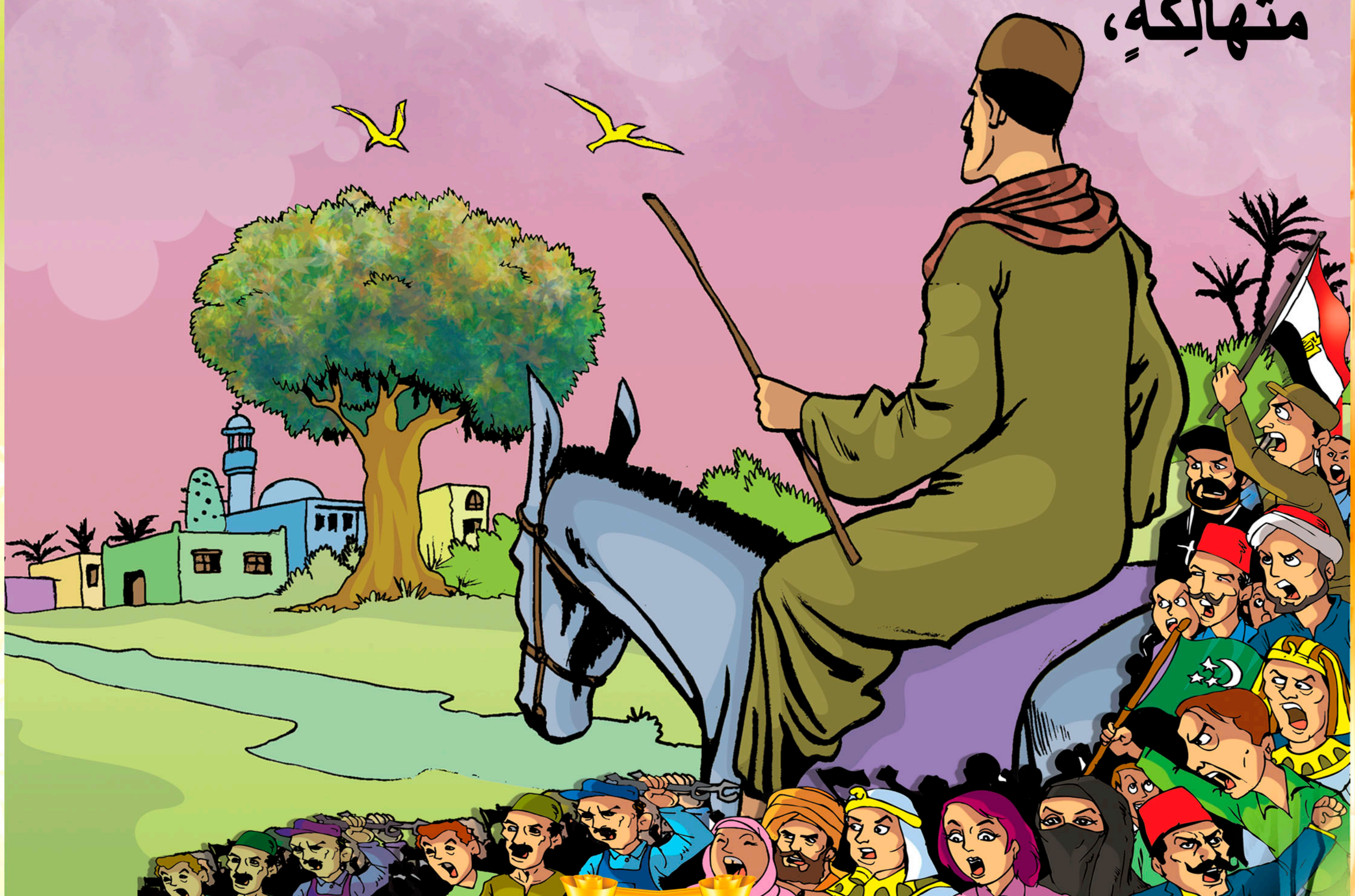
لَمْ تَكُنِ الصِّرَاعَاتُ وَالنِّزَاعَاتُ تَنْتَهِي عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ وَالْمَسَافَةُ بَيْنَ عَاصِمَةِ الْخِلافَةِ وَمَا بَيْنَ الْفسطَاطِ طَوِيلَةٌ، وَلَعَلَّ أَبْرَزَ مَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَا حَدَثَ فِي قَرْيَةِ "البهنسا".. وَهِيَ قَرْيَةٌ قَدِيمَةٌ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي عَصْرِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ،

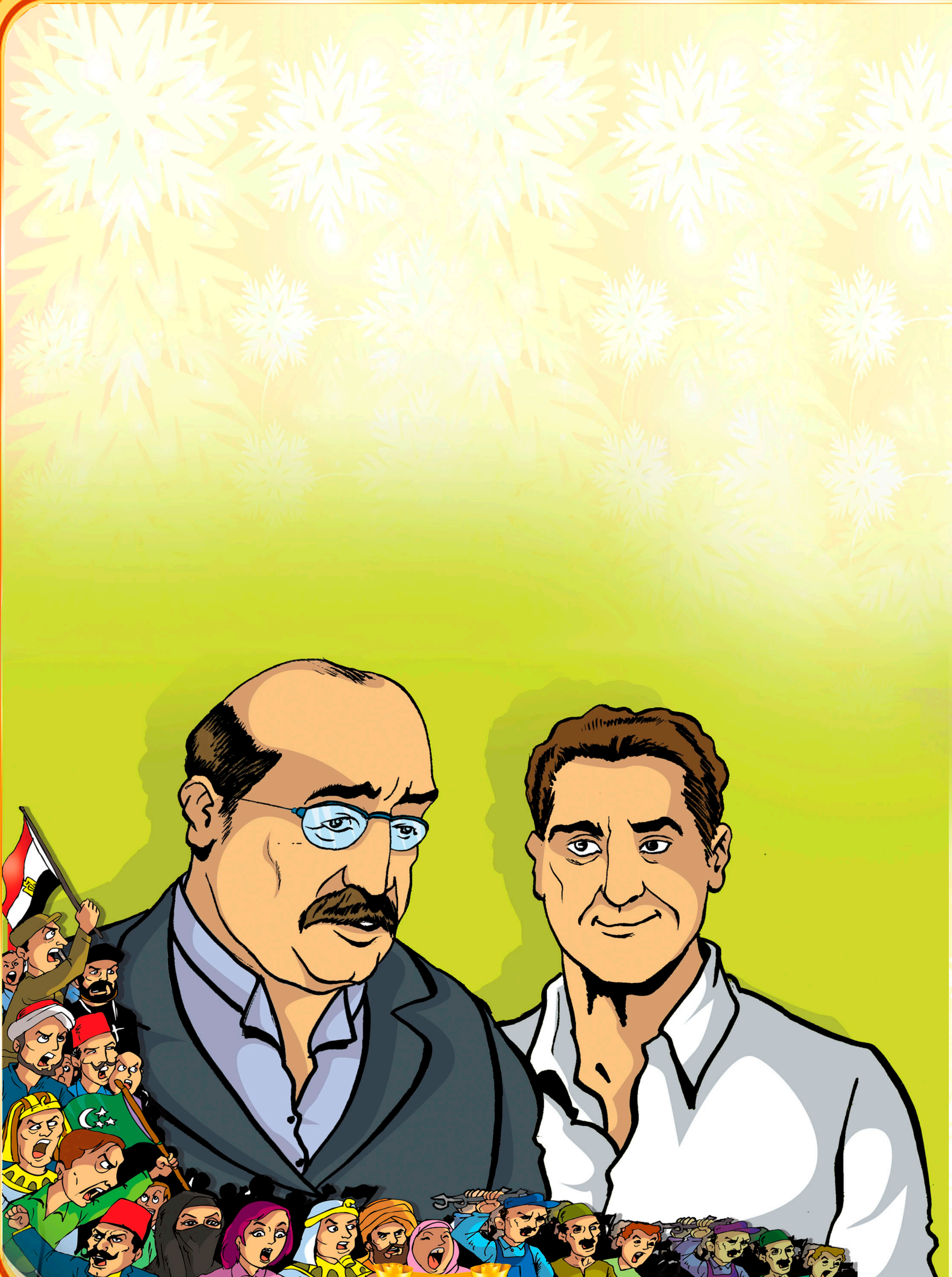
وَكَانَتْ مَقَرًّا لِعِبَادَةِ الإِلَهِ "ست"، الْمَعْرُوفِ، وَالَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ أُوزِيرِيسَ زَوْجَ أُخْتِهِ إِيزِيسَ الَّتِي تَصَدَّرَتْ لِهَذَا الشِّرِّيرِ وَجَمَعَتْ أَشْلاءَ زَوْجِهَا كَمَا تَحْكِي الأُسْطُورَةُ الشَّهِيرَةُ.. وَيَبْدُو أَنَّ تُرْبَةَ الْقَرْيَةِ كَانَتْ صَالِحَةً لِكَيْ تَنْبُتُ فِيهَا الْعَقِيدَةُ الدِّينِيَّةُ، إِذْ دَخَلَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْمَسِيحِيَّةِ وَصَارَتْ مَرْكَزًا لِلأَقْبَاطِ، حَتَّى قِيلَ أَنَّ عَشَرَةَ آلافِ رَاهِبٍ كَانُوا يَقْطُنُونَهَا، مَعَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الرَّاهِبَاتِ..



وَقَدْ سَمِعْتُ الْكَثِيرَ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ فِي طُفُولَتِي عِنْدَمَا كُنْتُ أَزُورُ قَرْيَتِي وَمَسْقَطَ رَأْسِي فِي الإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ..

إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ يَسْعَوْنَ لِزِيَارَتِهَا حَيْثُ هِيَ قَائِمَةٌ الآنَ تَابِعَةٌ لِمَرْكَزِ بَنِي مزار بِمُحَافَظَةِ الْمِنْيَا، وَبَيْنَ هَؤُلاءِ عَمٌّ لِي، نَجَحَ فِي ذَلِكَ رَغْمَ صُعُوبَاتٍ فَهِيَ تَبْعُدُ عَنَّا قُرَابَةَ الْخَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا، عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْطَعُوهَا سَيْرًا عَلَى الأَقْدَامِ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ حِمَارٍ، وَقَدْ يَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ أُتُوبِيسَاتٍ أَوْ عَرَبَاتٍ قَدِيمَةٍ مُتَهَالِكَةٍ،





سَأَلْتُ أَبِي، وَمُعَلِّمَي الدِّينِ وَالتَّارِيخِ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، وَلَمْ أَحْظَ بِالْكَثِيرِ، إِمَّا لأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ إِجَابَةً لأَسْئِلَتِي وَإِمَّا لأَنَّهُمْ يَجِدُونَ حَرَجًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهَا .. وَكَانَتْ ذُرْوَةُ الإِثَارَةِ مَا قَالَهُ لِي أَمِينُ مَكْتَبَةِ الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ، الَّتِي كُنَّا نَلْتَحِقُ بِهَا فَوْرَ حُصُولِنَا عَلَى الشَّهَادَةِ الابْتِدَائِيَّةِ.. وَكَانَ مُفِيدٌ أَفَنْدِي قِبْطِيًّا وَاسِعَ الْمَعْرِفَةِ، قَارِئًا مُمْتَازًا .. قَالَ لِي :

– الْحَدِيثُ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ شَائِكٌ، نَتَجَنَّبُهُ، مُسْلِمُونَ وَأَقْبَاطٌ، وَلا يَطِيبُ لَنَا كَثِيرًا الْخَوْضُ فِيهِ، لأَنَّهُ يُثِيرُ حَسَاسِيَّاتٍ، أَجْدَرُ بِنَا أَنْ نَبْتَعِدَ عَنْهَا وَنَتَفَادَاهَا، أَنَا شَخْصِيًّا تُثِيرُ مَرَارَةً شَدِيدَةً عِنْدِي..

وَلَمْ يُكْمِلْ ..

وَالْغَرِيبُ أَنَّ عِبَارَةَ "مَرَارَةً شَدِيدَةً" نَفْسَهَا جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ أَبِي عِنْدَمَا سَأَلْتُ عَنِ "الْبهنسَا"، وَقَالَ فِي صَوْتٍ يَقْطُرُ بِالأَسَى وَالْحُزْنِ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ..

– يَكْفِيكَ مَا رَوَاهُ لَكَ عَمُّكَ عَنْ زِيَارَتِهِ لَهَا وَطَوَافِهِ بِأَضْرِحَةِ أَبْنَاءِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .. لَقَدْ فَقَدْنَا عَلَى أَرْضِهَا سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ..

وَكَبِرْتُ وَقَرَأْتُ عَنِ "الْبهنسَا" وَثَوْرَتِهَا مَا جَعَلَنِي أَحْمَدُ الطَّرَفَيْنِ سُكُوتَهُمَا عَنْهَا وَعَدَمَ الدُّخُولِ فِي رِوَايَةِ تَفَاصِيلِهَا، مَعَ رَوْعَةِ تَارِيخِهَا لِلْجَانِبَيْنِ مَعًا لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْصِفَ وَيَعْدِلَ، وَيَقُولُ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ هَذِهِ الثَّوْرَةَ/ الْمَعْرَكَةَ اسْتَمَرَّتْ مَا يَزِيدَ عَلَى سِتَّةِ شُهُورٍ .

وَوَجَدْتُنِي فِي نَفْسِ الْمَوْقِفِ، بِلا رَغْبَةٍ فِي رِوَايَةِ مَا جَرَى وَمَا حَدَثَ بِالتَّفَاصِيلِ، وَأُرِيدُ أَنْ أَحْكِيَ إِجْمَالاً مَا حَدَثَ..



وَهُوَ تَكْرَارٌ لِمَا يَقَعُ وَيَحْدُثُ مَعَ كُلِّ الثَّوْرَاتِ مِنْ صِدَامٍ مُرَوِّعٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ يُوَاجِهُ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ، بِالْحُجَّةِ وَالسِّلاحِ..

أَهْلُ الْقَرْيَةِ يَضُجُّونَ بِالشَّكْوَى الْمُرَّةِ مِنَ الْجِزْيَةِ وَمِنَ الْخَرَاجِ، وَمُحَاوَلَةِ الْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ،وَسُلْطَةٍ تَرَى أَنَّ لَهَا الْحَقَّ فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ وَجِبَايَتِهِ خَاصَّةً وَهُوَ أَقَلُّ مِمَّا كَانُوا يَدْفَعُونَهُ لِلرُّومَانِ مِنْ قَبْلُ.. وَلَمْ يَكُنْ لِلْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا دَخْلٌ فِي هَذَا الصِّدَامِ، لَقَدْ سَارَ جَيْشٌ عَرَبِيٌّ، كَثِيفُ الْجُنْدِ، إِلَى الْقَرْيَةِ مِنْ أَجْلِ إِخْمَادِ ثَوْرَتِهَا الْعَارِمَةِ الَّتِي تَمَسَّكَتْ بِحَقِّهَا الَّذِي تَرَاهُ مَشْرُوعًا، وَإِذَا بِنَا أَمَامَ مَذْبَحَةٍ مِنَ الطَّرَفَيْنِ لا نَظُنُّ أَنْ كَانَ لَهَا مَثِيلٌ أَوْ شَبِيهٌ.. فَقَدَ بَنُو مِصْرَ عَشَرَةَ آلافٍ رَاحُوا ضَحِيَّةَ الثَّوْرَةِ، وَفَقَدَ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ الْكَثِيرَ، وَمَا يَرَوْنَهُ أَمْرًا فَادِحًا مَا مِنْ شَيْءٍ يُعَوِّضُهُمْ عَنْهُ.. أَنَّهُمْ صَحَابَةُ مُحَمَّدٍ، اسْتُشْهِدُوا، وَمَا مِنْ سَابِقَةٍ لَهُمْ تَجْعَلُ هَذَا الْحَدَثَ الْمُرَوِّعَ..

لَمْ تَكُنْ ثَوْرَةُ الْبهنسَا وَحْدهَا أَكْبَرَ الثَّوْرَاتِ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ،

وَإِنْ كَانَتْ أبْرَزَهَا.. لَقَدْ قامَتْ هَبَّاتٌ وَانْتِفَاضَاتٌ صُغْرَى وكُبْرَى، لَكِنَّهَا لا تَرْقَى لِوَصْفِهَا بِالثَّوْرَةِ الَّتِي أَطْلَقَ عَلَيْهَا د.حُسَيْنٌ نَصَّارٍ "الْقِبْطِيَّةَ".. وَهِيَ جَدِيرَةٌ بِالْوُقُوفِ عِنْدَهَا، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ دِينِيَّةً، إِذْ شَارَكَ فِيهَا مَنْ بَقُوا عَلَى دِيَانَتِهِمُ الْفِرْعُونِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، وَمَنْ آمَنَ بِالْمَسِيحِيَّةِ، وَأَيْضًا مَنْ أَسْلَمُوا عَنِ اقْتِنَاعِهِمْ حَقِيقَةً أَوْ هُرُوبًا مِنَ الْجِزْيَةِ، أَوْ سَعْيًا وَرَاءَ صَالِحٍ شَخْصِيٍّ وَرُبَّمَا مُجَارَاةً لِلتَّيَّارِ.. كَانَ هَؤُلاءِ جَمِيعًا هُمُ الثُّوَّارُ، مُتَّحِدِينَ مَعًا وَالسُّؤَالُ:

- جُنْدُ مَنْ ثَارُوا ؟



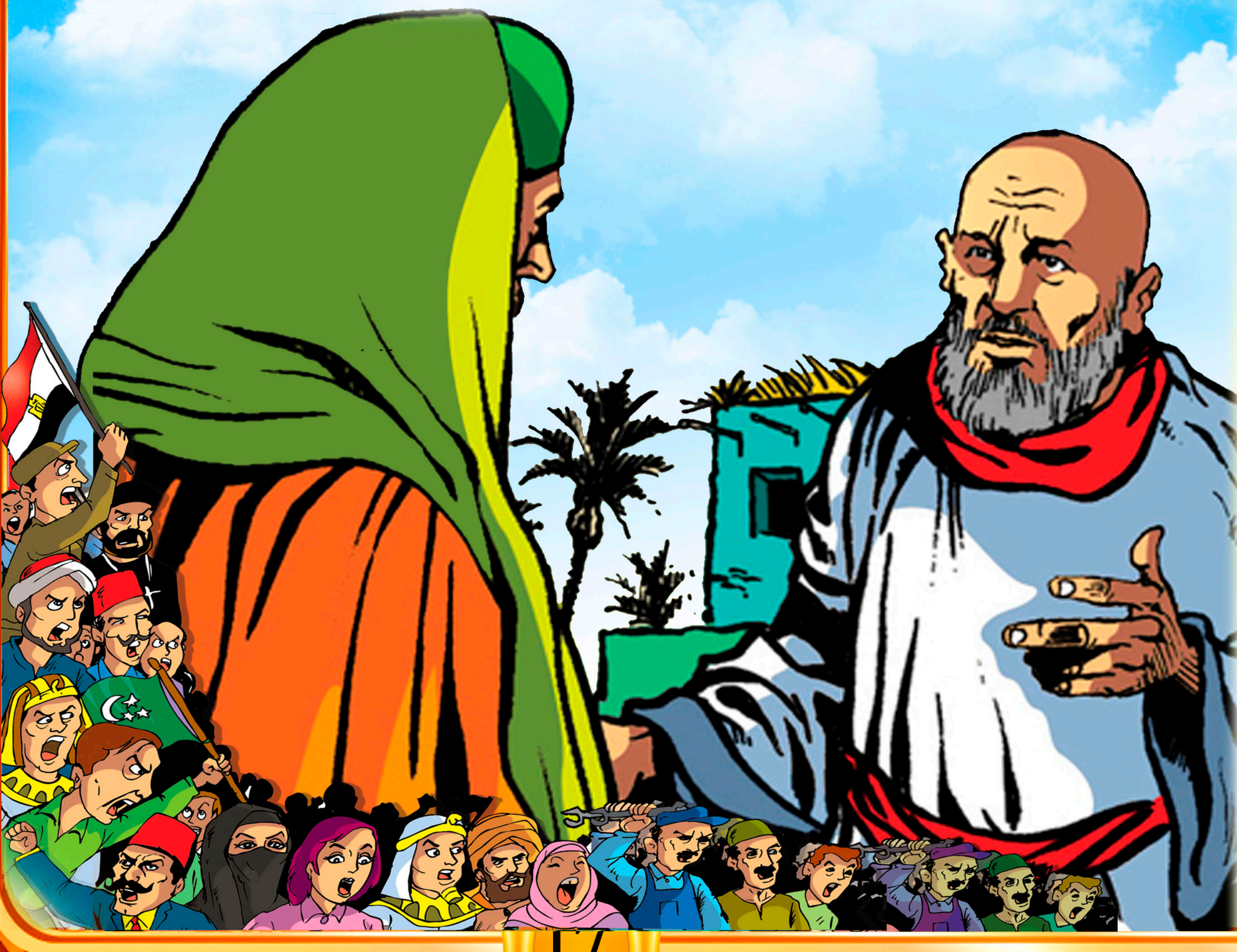
كَانَ هُنَاكَ وُلاةٌ وَحُكَّامٌ بَعَثَتْ بِهِمْ عَاصِمَةُ الْخِلافَةِ الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ فِي عَهْدِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَمِنْ دِمَشْقَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ وَالأُمَوِيِّينَ، وَمِنْ بَغْدَادَ بَعْدَ انْتِقَالِ السُّلْطَةِ إِلَى الْعَبَّاسِيِّينَ، وَهَكَذَا كَانَتِ الثَّوْرَةُ جُنْدَ الْوُلاةِ وَالْحُكَّامِ، وَأَيْضًا جُنْدَ مَنْ بُعِثُوا عَنْهُمْ.. خَاصَّةً وَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ اخْتِيَارَاتٌ سَوِيَّةٌ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْكَفَاءَةِ وَالْخِبْرَةِ، كَمَا أَنَّ هَؤُلاءِ الْمُخْتَارِينَ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَهْتَمُّونَ بِجَمْعِ الْمَالِ إِرْضَاءً لِلْخُلَفَاءِ، أَوْ لِصَالِحِهِمُ الْخَاصِّ مِمَّا أَغْضَبَ أَهْلَ الْبِلادِ.

وَارْتَاحَ بَنُو مِصْرَ لِلْعَرَبِ، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اضْطِهَادٌ دِينِيٌّ، كَمَا كَانَ أَيَّامَ الرُّومَانِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ فِكْرَةُ التَّسَامُحِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّغْبَةُ فِي اكْتِسَابِ الرِّضَا وَالْمَوَدَّةِ، وَقَدِ اهْتَمُّوا بِالتَّوَسُّعِ غَرْبًا، وَكَانَ هَمُّهُمْ هُوَ انْتِشَارُ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ جَمْعَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَإِرْسَالَهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي عَاصِمَةِ الْخِلافَةِ..

وَبَدَأَ يَفِدُ وُلاةٌ، لَيْسُوا عَلَى هَذَا الْمُسْتَوَى مِنَ الأَخْلاقِ وَالْوَعْيِ بِالرِّسَالَةِ، فَخَرَجُوا يَجْنُونَ الضَّرَائِبَ بِجُنُونٍ،

وَشَعَرَ بَنُو مِصرَ بِهَذِهِ الضُّغُوطِ، وَذَلِكَ الاسْتِغْلالِ لَهُمْ، إذْ أصْبَحَ مَا يَتَبقَّى لَهُمْ لا يَكْفِي احْتِيَاجَاتِهِمُ الضَّرُورِيَّةَ، وَرَاحُوا يُبَادِرُونَ بِالشَّكْوَى، خَاصَّةً فِي السَّنَوَاتِ الْعِجَافِ الْجَافَّةِ الَّتِي لا يَفِيضُ فِيهَا النَّهْرُ بِمِيَاهٍ تَكْفِي لِرَيِّ الْمَزْرُوعَاتِ وَتَقِلُّ فِيهَا الْمَحَاصِيلُ، فَتَوَقَّفَ الْبَعْضُ عَنْ دَفْعِ مَا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ هُنَا بَدَأَتِ الصَّدَمَاتُ وَقَامَتْ هَبَّاتٌ وَانْتِفَاضَاتٌ ضِدَّ جَامِعِي الْمَالِ، وَضِدَّ الْوُلاةِ، وَكَانَتْ عَنِيفَةً فِي سَنَوَاتٍ مُحَدَّدَةٍ.

- فِي عَامِ 107هـ أرادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْحَبْحَابِ



أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الأُمَوِيِّ فِي دِمَشْقَ: هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَرَفَعَ مِنْ قِيمَةِ الْخَرَاجِ الَّذِي يُفْرَضُ عَلَى الْفَلاحِينَ، وَغَضِبَ هَؤُلاءِ وَاحْتَجُّوا، وَامْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الْخَرَاجِ ؛ واسْتَعَانَ الرَّجُلُ بِالْوَالِي وبِالْجَيْشِ لِكَيْ يُخْضِعَهُمْ بِالْقُوَّةِ، وَأَخْمِدَتِ الانْتِفَاضَةُ.

- وَفِي عَامِ 121هـ تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الْوَالِي حَنْظَلَةَ بْنِ صَفْوَانَ، وَقَامَتْ هَبَّةٌ قَوِيَّةٌ مِنْ جَانِبِ دَافِعِي الضَّرَائِبِ وَمِنْ جَدِيدٍ اصْطَدَمَ الْفَلاحُونَ وَالأَقْبَاطُ مِنْ جَانِبٍ مَعَ الْجُنُودِ الَّذِينَ بَعَثَ بِهِمُ الْحَاكِمُ وَسَقَطَ قَتْلَى كَثِيرُونَ.
- وَفِي عَامِ 132هـ ثَارَ أَهَالِي سَمَنُّودَ عَلَى الْحَاكِمِ الَّذِي كَانَ اسْمُهُ يَوْمَهَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ، وَاضْطَرَّ هَذَا إِلَى اسْتِخْدَامِ الْعَسْكَرِ الَّذِينَ قَتَلُوا عَدَدًا كَبِيرًا مِمَّنْ ثَارُوا وَرَفَضُوا أَدَاءَ الضَّرَائِبِ، وَتَكَرَّرَ هَذَا مَعَ أَهَالِي رَشِيدٍ فِي نَفْسِ السَّنَةِ، وَمَعَ أَهَالِي سَمَنُّودَ عَامَ 139هـ.
- وَفِي عَامِ 150هـ، وَعَامِ156هـ حَدَثَ نَفْسُ الشَّيْءِ انْتِفَاضَةٌ فِي " سَخَا " وَأُخْرَى فِي "بلهيب ".

كُلُّ هَذَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِثَوْرَةٍ كُبْرَى عَامَ 216هـ

نَقُولُ كُلَّ هَذَا لِنُؤَكِّدَ عَلَى شَيْءٍ: أَنَّ شَعْبَنَا قَدْ يَصْبِرُ عَلَى الظُّلْمِ وَالضَّيْمِ إِلَى أَنْ يَخْلُقَ فُرْصَةً لِثَوْرَةٍ عَارِمَةٍ،

يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلالَهَا أنْ يَفْرِضَ إرَادَتَهُ وَيُحَقِّقَ مَا يُرِيدُ، فَفِي سَنَةِ 216هــ قَامَتْ ثَوْرَةٌ كُبْرَى فِي مِصْرَ اتَّحَدَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ وَالأقْبَاطُ ضِدَّ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَوَالِيهَا عَلَى مِصْرَ: عِيسَى بْنُ مَنْصُورٍ، الَّذِي عَاثَ هو عُمَالُهُ فَاسِدًا مِمَّا أثَارَ غَضَبَ الأهَالِي- أقْبَاطٍ وَمُسْلِمِينَ-فَرَفَعُوا رَايَةَ الْعِصْيَانِ، وَطَرَدُوا جُبَاةَ الْمَالِ، وَاسْتَعَانَ الْحَاكِمُ بِالْجُنْدِ، لَكِنَّهُمْ لَقُوا هَزِيمَةً مُبَكِّرَةً، زَحَفَ بَعْدَهَا الْغَاضِبُونَ إلَى الْفسْطَاطِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا .. عَلِمَتْ بَغْدَادُ بِمَا حَدَثَ وَجَرَى فَمَا كَانَ مِنَ الْخَلِيفَةِ -



وكَانَ يَوْمَهَا الْمَأمُونَ ابْنَ هَارُونَ الرَّشِيدِ- فَمَا كَانَ مِنْهُ إلا أنْ قادَ جَيْشًا كَثِيفًا مَضَى بِهِ إلَى مِصْرَ، وَحَاوَلَ أنْ يَسْتَمِيلَ الأقْبَاطَ مُسْتَعِينًا بِرِجَالِ الدِّينِ، غَيْرَ أنَّ الأمُورَ لَمْ تَهْدَأ، وَأبَى الثُّوَّارُ إلا أنْ يَسْتَمِرُّوا فِي ثَوْرَتِهِمْ مِمَّا جَعَلَ الْمَأمُونُ يَقْسُو عَلَيْهِمْ أشَدَّ الْقَسْوَةِ وَأمَرَ بِقَتْلِ رِجَالِهِمْ وَبَيْعِ نِسَائِهِمْ وَأطْفَالِهِمْ بِاعْتِبَارِهِمْ غَنِيمَةَ حَرْبٍ.. وَانْتَهَتِ الثَّوْرَةُ بِمُعْجِزَةٍ هَائِلَةٍ، وَاصْطَحَبَ الْمَأمُونُ أسْرَى كَثِيرِينَ إلَى بَغْدَادَ، وَأعْفَى جُبَاةَ الْخَرَاجِ مِنْ وَظَائِفِهِمْ وَوَلَّى بَدَلاً مِنْهُمْ، مِمَّا أشَاعَ بَعْضَ السَّكِينَةَ وَالْهُدُوءَ..



مِنْ هَذَا الْعَرْضِ نَعْرِفُ أَنَّ الْقَرْنَ الأَوَّلَ الْهِجْرِيَّ مَرَّ بِهُدُوءٍ، وَمَعَ الْقَرْنِ الثَّانِي كَانَتْ هُنَاكَ انْتِفَاضَاتٌ، إلا أَنَّ الثَّوْرَةَ الْكُبْرَى قَامَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ، وَقَامَتْ لأَسْبَابٍ اقْتِصَادِيَّةٍ وَلَيْسَتْ دِينِيَّةً .

عِنْدَمَا قَوِيَتِ السُّلْطَةُ، وَعَظُمَ أَمْرُ الْجُنْدِ، تَوَقَّفَ بَنُو مِصْرَ عَنِ الْهَبَّاتِ وَالانْتِفَاضَاتِ وَالثَّوَرَاتِ، وَدَرَّبُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعِصْيَانِ الْمَدَنِيِّ وَالْمُقَاوَمَةِ السِّلْمِيَّةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا نَجَحَتْ فِي تَخْفِيضِ الظُّلْمِ، وَقَدْ تَجَاسَرُوا عَلَى طَرْدِ بَعْضِ الْوُلاةِ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، وَقَدْ وَلَّى مُعَاوِيَةُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ أَخَاهُ عُتْبَةَ عَلَى مِصْرَ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِ الأَمْرُ وَخَرَجَ لِيَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ حَاكِمٌ ظَالِمٌ رَفَضَ بَنُو مِصْرَ التَّعَاوُنَ مَعَهُ، فَعَادَ عُتْبَةُ لِيَخْطُبَ فِيهِمْ:

- يَا أَهْلَ مِصْرَ

لَقَدْ كُنْتُمْ تُعْذَرُونَ بِبَعْضِ الْمَنْعِ مِنْكُمْ لِبَعْضِ الْجورِ عَلَيْكُمْ وَقَدْ وَلِيَكُمْ مَنْ إِنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ

فَإِنْ أَبَيْتُمْ دَارَاكُمْ بِيَدِهِ وَإِنْ أَبَيْتُمْ دَارَاكُمْ بِسَيْفِهِ .. لَنَا عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ

وَأَيُّنَا غَدَرَ فَلا ذِمَّةَ لَهُ عِنْدَ صَاحِبِهِ .

فَنَادَاهُ الْمِصْرِيُّونَ مِنْ جَنَبَاتِ الْمَسْجِدِ: سَمْعًا .. سَمْعًا .
وَنَادَاهُمْ: عَدْلاً .. عَدْلاً .
هَكَذَا يَكُونُ الْعَقْدُ وَالاتِّفَاقُ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ وَبَيْنَ الْوَالِي وَالرَّعِيَّةِ .
وَفِي عَامِ 58هـ وَلَّى مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ابْنَ أُخْتِهِ عَلَى مِصْرَ، وَكَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعُرِفَ بِاسْمِ ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ عُتْبَةُ مِصْرَ وَكَانَ مِنْ قَبْلُ وَالِيًا عَلَى الْكُوفَةِ وَطَرَدَهُ أَهْلُهَا..
قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى مِصْرَ:
- ارْجِعْ إِلَى أَخِيكَ يَا ابْنَ أُمِّ الْحَكَمِ، لَنْ تَصْلُحَ مَعَ بَنِي مِصْرَ إِذَا سِرْتَ فِيهِمْ كَمَا فَعَلْتَ فِي أَهْلِنَا بِالْكُوفَةِ.
وَسَارَعَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ إِلَى لِقَاءِ الْخَلِيفَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَقَالَ لَهُ فِي حَضْرَةِ أُخْتِهِ أُمِّ الْحَكَمِ، فَسَأَلَتْ أَخَاهَا:
- مَنْ يَكُونُ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟
أَجَابَهَا: هَذَا مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ (وَكَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ مَا قَالَهُ لابْنِهَا)
قَالَتْ: لا مَرْحَبًا، تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ!

رَدَّ ابْنُ حَدَيْجٍ: عَلَى رِسْلِكِ يَا أُمَّ الْحَكَمِ، وَاللهِ لَقَدْ تَزَوَّجْتِ فَمَا أَكْرَمْتِ وَوَلَدْتِ فَمَا أَنْجَبْتِ، أَرَدْتِ أَنْ يَأْتِيَ ابْنُكِ الْفَاسِقُ عَلَيْنَا فَيَسِيرَ فِينَا كَمَا سَارَ فِي أَهْلِنَا بِالْكُوفَةِ، مَا كَانَ اللهُ لِيُرِيَهُ ذَلِكَ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَضَرَبْنَاهُ ضَرْبًا يُطَأطِئُ مِنْهُ وَلَوْ كَرِهَ أَخُوكِ هَذَا الْجَالِسُ بِجُوَارِكِ.

وَأَشَارَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ .

وَالْتَفَتَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهَا وَقَالَ: كَفَى! فَكَفَّتْ..

***

رَفْضُ بَنُو مِصْرَ لِلتَّوْرِيثِ لَيْسَ بِجَدِيدٍ مُنْذُ عَامِ 58هـ وَنَحْنُ تَجَاوَزْنَاهُ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا!



هَكَذَا كَانَتْ مِصْرُ وَأَهْلُهَا يَتَعَامَلُونَ مَعَ الْوُلاةِ الَّذِينَ تَبْعَثُ بِهِمْ عَاصِمَةُ الْخِلافَةِ إِلَى مِصْرَ: كَانُوا أَحْيَانًا يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدُّخُولِ إِلَى الْفسطَاطِ مِثْلَ ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ إِذْ تَسْبِقُهُمْ سُوءُ سُمْعَتِهِمْ، وَقَدْ يَمْتَنِعُونَ عَنْ دَفْعِ الْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ لِعُمَّالِهِمْ،

وَرُبَّمَا تَجَاوَزُوا ذَلِكَ وَخَلَعُوا الْوَالِيَ إِذَا اشْتَطَّ فِي ظُلْمِهِمْ، وَطَرَدُوهُ شَرَّ طَرْدَةٍ بَعْدَ أَنْ يُوَاجِهُوا حُرَّاسَهُ وَجُنْدَهُ بِالسِّلاحِ.

وَقَدْ نَجَحَتْ مِصْرُ بِانْتِفَاضَاتِهَا وَثَوَرَاتِهَا فِي الاسْتِقْلالِ عَنْ دَارِ الْخِلافَةِ كَمَا حَدَثَ فِي عَهْدِ الطُّولُونِيِّينَ وَالإِخْشِيدِيِّينَ..

ذَلِكَ أَنَّ بَنِي مِصْرَ كَانُوا دَائِمًا يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْعَدْلِ، وَإِلَى الْعَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَأْبَوْنَ الضَّيْمَ وَيَرْفُضُونَ الانْصِيَاعَ إِلَى الْمُسْتَبِدِّينَ مِنَ الْوُلاةِ وَالْحُكَّامِ، وَكَانَ هَذَا يُكَلِّفُهُمُ الْكَثِيرَ وَكَمْ سَقَطَ مِنْ شُهَدَاءِ أَبَوُا الرُّضُوخَ لِمَنْ يَتَجَاوَزُونَ حُدُودَهُمْ، وَلا يَحْكُمُونَ بِمَا أَمَرَ اللهُ..

نَعَمْ، سَمْعًا وَطَاعَةً لِلْعُرُوبَةِ وَالإِسْلامِ إِذَا مَا الْتَزَمَ الْوُلاةُ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ..

وَقَدِ اسْتَخْلَصْنَا هَذَا مِنْ كِتَابَاتِ الثَّعَالِبِيِّ فِي (قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ) وَالْوَاقِدِيِّ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ مُؤَرِّخِي هَذِهِ الْحِقْبَةِ التَّارِيخِيَّةِ الْهَامَّةِ.

***